WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

حَدِيث «زيِّنوا القرآنَ بأصْواتِكم»

د/كمال قالمي
■ أستاذ مساعد. كلية العلوم الإسلامية بجامعة وهران

قد وردت أحاديث كثيرة في الحث على قراءة القرآن الكريم ومدارسته، والترغيب في حفظه وتعاهده، والأمر بتحسين الصوت عند تلاوته، والتغني به.

ومنها هذا الحديث الذي بين أيدينا، وقد ورد عن جماعة من الصحابة ﷺ، وأصحها حديث البراء بن عازب ﷺ والذي سيكون الكلام عليه في مقامين:

الأول: في تخريجه وبيان طرقه وألفاظه.

والثاني: في بيان معناه، واختلاف أهل العلم في تفسيره.

■ المقام الأول ـ في تخريج الحديث:

وله عن البراء بن عازب ﷺ أربعة طرق:

الطريق الأولى: طلحة بن مصرف اليامي، عن عبد الرحمن بن عوسجة، عن البراء بن عازب ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «زَيِّنُوا القُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ».

وعن طلحة رواه الجم الغفير، وقد استقصى أكثر طرقه الحاكم النيسابوري في «مستدركه» حيث أخرجه من طريق عشرين نفسًا عنه، ومن طريق متابِعَيْن له، ومن طرق ثلاثة عن البراء ﷺ.

وهذه الروايات كلُّها لم يختلف في لفظها المذكور إلا ما جاء في بعض الروايات عن الأعمش، ومنصور ابن المعتمر، بلفظ: «زَيِّنُوا أَصْوَاتَكُم بالقرآن» بتقديم الصوت على القرآن، وهي رواية شاذة غير محفوظة، وإليك البيان:

أ) فأمَّا رواية الأعمش.

فأخرجها أبوداود (1468)، والنَّسائي (1014) من طريق جرير بن عبد الحميد الضبي.

وأحمد (18709)، وابن أبي شيبة (8977)، والبيهقي (2462) من طريق وكيع.

وأحمد (18494) أيضًا من طريق حميد بن عبد الرحمن الرؤاسي.

وابن أبي شيبة (31928) من طريق حفص بن غياث ووكيع (جمعهما).

والبخاري في «خلق أفعال العباد» (263) من طريق حفص بن غياث وحده.

وأبو عوانة في «مستخرجه»(4352) من طريق وكيع، ومحاضر بن المروع (جمعهما).

والبيهقي (21086) من طريق عبد الله بن نمير.

رواه هؤلاء كلهم عن الأعمش، عن طلحة بن مصرف، عن عبد الرحمن بن عوسجة، عن البراء بن عازب ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «زَيِّنُوا القُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ».

ورواه الحاكم (2137) من طريق معمر والثوري

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

(جمعهما)، عن الأعمش، به، مثله، ثم قال عقبه: «وفي حديث معمر: «زَيِّنُوا أَصْواتَكُم بالقرآن».

وتابع معمرًا على هذا اللفظ: محمد بن فضيل ابن غزوان الضبي، فيما أخرجه ابن الأعرابي في «معجمه» (859) قال: حدثنا أحمد العطاردي، نا محمد ابن فضيل، عن الأعمش، به.

2) وأمّا رواية منصور بن المعتمر.

فأخرجه عبد الرزاق (4220)، والدارمي (3543)، وابن حبان (218) من طريق سفيان الثوري، عن منصور، عن طلحة، عن عبد الرحمن ابن عوسجة، عن البراء بن عازب ﷺ، قال: قال النَّبِي ﷺ: «زَيِّنُوا القُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ».

وأخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص68)، والروياني في «مسنده» (358) من طريق جرير بن عبد الحميد الضبي.

وأخرجه الحاكم (2128) من طريق الثوري، و(2129) زائدة بن قدامة، و(2130) عمرو ابن أبي قيس، و(2131) جرير بن عبد الحميد الضبي، و(2132) إبراهيم بن طهمان و(2133) عمّار ابن محمد الثوريّ، (فرّقهم) جميعًا عن منصور، به، مثله.

وأخرجه عبد الرزاق (4221). ومن طريقه الخطابي في «معالم السنن» (290/1)، و«غريب الحديث» (278). عن معمر، عن منصور، به، بلفظ: «زَيِّنُوا أَصْوَاتَكُمْ بِالْقُرْآنِ».

والحاصل أن اللفظ المحفوظ هو: «زينوا القرآن بأصواتكم»، وأما لفظ: «زينوا أصواتكم بالقرآن» فهو شاذ مقلوب؛ فقد خالف فيه معمر، ومحمد بن فضيل جمعًا من الحافظ الثقات الأثبات من أصحاب الأعمش كالثوري ووكيع وابن نمير وغيرهم.

وكذا خالف معمر أيضًا أصحاب منصور ابن المعتمر.

ومما يدل على شذوذ هذا اللفظ المقلوب أيضًا، رواية سائر الرواة. وهم عشرون نفسا عند الحاكم، كما سبق. كلهم يرويه عن طلحة بن مصرف، به، باللفظ المحفوظ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»، ومن أشهر هؤلاء الرواة: شعبة بن الحجاج الواسطي.

فقد أخرج حديثه النَّسائي (2/1015)، وابن ماجه (1342)، وأبو عبيد القاسم بن سلام في «فضائل القرآن» (ص160)، وأبو داود الطيالسي (776)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (267، 269) والروياني في «مسنده» (353)، وابن خزيمة (1551)، والحاكم (2138)، والبيهقي (2463) من طرق عن شعبة، عن طلحة بن مصرف، به. بلفظ: «زَيِّنُوا القُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ».

ويدل على شذوذه أيضًا الطريقان الآتيان:

□□□

الطريق الثانية: زاذان أبو عمر، عن البراء ابن عازب ﷺ.

أخرجه الدارمي (3544)، قال: حدثنا محمد ابن بكر، حدثنا صدقة بن أبي عمران، عن علقمة ابن مرثد، عن زاذان أبي عمر، عن البراء بن عازب ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «حَسِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ؛ فَإِنَّ الصَّوْتَ الْحسن يزيد الْقُرْآن حُسْنًا».

ومن طريق الدارمي أخرجه ابن حبان في «الثقات» (48/9)، وأبو الشيخ في «طبقات المحدثين بأصبهان» (12/4)، والحاكم (2154)، وتمام في «الفوائد» (1072) ولفظهم. إلا ابن حبان.: «زَيِّنُوا القُرآن...».

وإسناده حسن؛ لأجل صدقة بن أبي عمران فهو صدوق، وبقية رجاله ثقات.

وأخرجه تمام في «فوائده» (1071)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (1955) من طريق سلمة بن سعيد، عن صدقة بن أبي عمران، به، مثله.

□□□

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

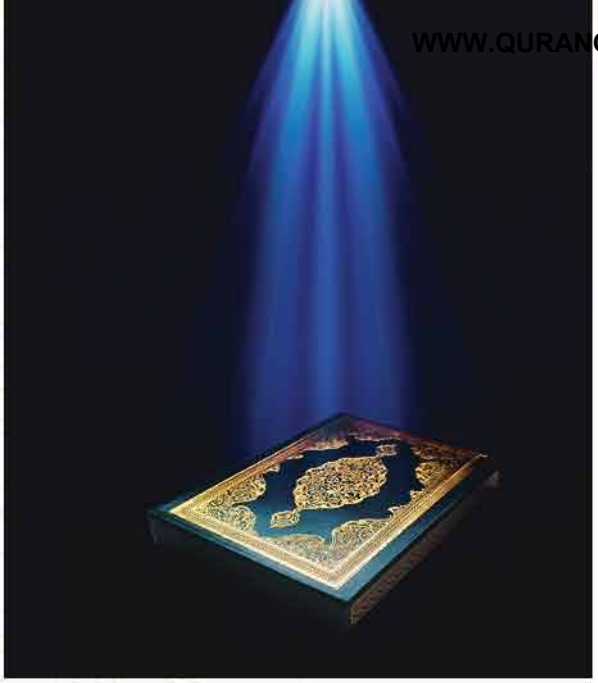

الطريق الثالثة: أوس بن ضَمْعَج، عن البراء ﷺ.

أخرجه أبو يعلى (1706)، وأبو بكر الإسماعيلي في «معجم شيوخه» (315)، والحاكم (2156) من طريق زياد بن أيوب، عن أبي يحيى الحماني، عن مالك بن مغول، والحسن بن عُمارة، وفِطْر بن خليفة، عن إسماعيل بن رجاء، عن أوس بن ضمعج، عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (فذكره). ولم يذكر الحاكم: الحسن بن عُمارة.

وإسناده لا بأس به في المتابعات، فيه عبد الحميد ابن عبد الرحمن الحماني، صدوق يخطئ، كما في «التقريب»، وبقية رجاله ثقات.

□□□

الطريق الرابعة: عدي بن ثابت، عن البراء ﷺ.

أخرجه الحاكم (2155) قال: حدثنا علي بن الحسن الرُّصَافي، ثنا العباس بن أحمد بن الحسن ابن سعيد بن عثمان الخزَّاز، حدثني أبي، قال: وجدت في كتاب جدي، ثنا حُصَيْن بن مُخَارق، ثنا أبو مريم عبد الغفار بن القاسم، عن عدي بن ثابت، عن البراء ﷺ، أن رسول الله ﷺ، قال: (فذكره).

وهذا إسناد واهٍ جدًّا، عبد الغفار بن القاسم، قال فيه الذهبي: «رافضي ليس بثقة، وقال علي بن المديني: كان يضع الحديث» («ميزان الاعتدال» 2/640، وانظر: «لسان الميزان» 5/226)، وحصين بن مخارق، اتهمه الدارقطني بوضع الحديث (انظر: «ميزان الاعتدال» 1/554، و«لسان الميزان» 3/220)، وشيخ الحاكم علي بن الحسن الرُّصافي، قال فيه الذهبي: «متهم بالوضع والكذب، وكان ذا حفظ وعلم» («ميزان الاعتدال» 3/120، وانظر: «لسان الميزان» 5/514).

وهذا الحديث علّقه الإمام البخاري في كتابه «الجامع الصحيح» بصيغة الجزم، ووصله في «خلق أفعال العباد»، كما سبق تخريجه من الطريق الأولى.

■ المقام الثاني في معنى الحديث:

اختلف أهل العلم في تفسير حديث البراء ﷺ، فمنهم من ذهب إلى القول بظاهره، ومنهم من ذهب إلى تأويله.

♦ **المذهب الأوّل:** الأخذ بظاهره، ومعناه كما قال الإمام أحمد: «يحسِّنه بصوته ما استطاع»[1]؛ لأنّ في أدائه بحسن الصوت وجودة الأداء، وصحة الترسل بعثًا للقلوب على استماعه وتدبره والإصغاء إليه، والانتفاع به[2].

واستدلوا في ذلك إلى جملة من الأدلة، منها:

1. الزيادة التي جاءت في الطريق الثانية من حديث البراء ﷺ، ولفظها: «...فَإِنَّ الصَّوْتَ الْحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْنًا».

وهذه الزِّيادة صريحة في المعنى، ولا تقبل التأويل[3].

2. ما رواه ابن حبان (3531)، والبيهقي (21096) عن أبي موسى الأشعري ﷺ، قال: لي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْمَعُ قِرَاءَتَكَ الْبَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»، فَقَالَ: لَوْ عَلِمْتُ مَكَانَكَ لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا». أي زيَّنته لك وحسَّنته[4].

صحَّحه العلامة الألباني رحمه الله[5]، وأصله في

(1) ينظر: «مجموع الفتاوى» (12/540).
(2) ينظر: «كتاب الأربعين المغنية بعيون فنونها عن المعين» للحافظ العلائي (ص652).
(3) ينظر: «نصب الراية» (2/215)، و«البدر المنير» (9/639).
(4) «مدارج السالكين» (2/142).
(5) ينظر: «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (7153).

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

«صحيح مسلم (793)»[1].

3. ما رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص157)، وسعيد بن منصور في «سننه» (54)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (32153)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (2467) عن علقمة أنه قرأ على عبد الله بن مسعود ﷺ. فَكَأَنَّهُ عَجِلَ.. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: «فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي رَتِّلْ، فَإِنَّهُ زَيِّنُ الْقُرْآنِ» قَالَ: وَكَانَ عَلْقَمَةُ حَسَنَ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ»، ورجاله ثقات.

♦ **المذهب الثاني:** أنه من باب القلب[2]، والمعنى: زيِّنوا أصواتكم بالقرآن؛ بتقديم الأصوات عَلَى مذهب العرب في قَلْب الكَلام، مثل قولهم: عَرَضْتُ النَّاقَةَ عَلَى الحوض أي عرضْتُ الحَوضَ عَلَى النَّاقة.

وقول الشاعر:

كانت عُقُوبَةَ ما فَعلْتَ كما كان الزِّنا عُقُوبةَ الرَّجْمِ

يعني: كما كان الرَّجمُ عقوبةَ الزِّنا[3].

قال ابن حبان عقب حديث البراء السابق: «هذه اللفظة من ألفاظ الأضداد يريد بقوله: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»: زيِّنوا أصواتكم بالقرآن».

واستدلوا لهذا المعنى بما يلي:

1. ما ورد في بعض الروايات في حديث البراء ﷺ السابق، من طريق معمر وغيره، بلفظ: «زَيِّنُوا أَصْوَاتَكُمْ بِالْقُرْآنِ».

2. ما رواه أبو هريرة ﷺ، عن النَّبي ﷺ قال: «زَيِّنُوا أَصْوَاتَكُمْ بِالْقُرْآنِ».

قال الخطابي: «والمعْنى اشْغلُوا أَصْواتَكُم بالقرآن والْهَجُوا بقراءَته، واتَّخذوه زينةً وشِعارًا ولم يُرِدْ تطريبَ الصوْت به والتَّحزينَ له إذ ليس هذا في وُسْع كلِّ أحد؛ فلعلّ من الناس مَنْ إذا أراد التَّزْيين له أَفضَى به إلى التَّهْجين»[4].

وقال ابن خالويه: «وكأنه ﷺ حثّ على قراءة القرآن ومداومة الدّراسة، والقرآن لا يحتاج إلى تزيين، بل يُزَيِّن من قرأه»[5].

3. ما رواه البخاري (7527) عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ».

قال الخطابي في «غريب الحديث» (1/358): «إنما هو أن يلهج بتلاوته كما يلهج الناس بالغناء والطرب عليه، وإلى هذا المعنى ذهب ابنُ الأعرابي صاحبُنا.

أخبرني إبراهيم بن فراس قال: سألت ابن الأعرابي عن هذا؟ فقال: «إنّ العرب كانت تتغنّى بالرُّكْبَاني وهو النّشيد بالتَّمْطيط والمدّ إذا ركبت الإبل، وإذا تبطّحت على الأرض، وإذا جلست في الأفنية وعلى أكثر أحوالها، فلما نزل القرآنُ أحبَّ النبيُّ ﷺ أن يكون القرآن هِجّيراهُم مكان التَّغَني بالرُّكباني».

4. أنّ الحامل لهم على هذا التأويل هو تنزيه كلام الله ﷻ عن أن يزيِّنه صوتُ مخلوق، بل الصوتُ أحقُّ بأن يُحسَّن بالقرآن.

قال الخطابي في «غريب الحديث» (1/367): «وإنما تأوّلنا الحديثَ عَلَى هذا المعنى؛ لأنّه لا يجُوزُ عَلَى القرآن وهو كَلامُ الخالق أن يُزيّنَه صَوْتُ مَخْلوقٍ بل هُوَ بالتَّزْيين لغَيْره والتَّحْسين له أَوْلى.

وقد تَوقَّى هذه الرِّوايَة قَومٌ؛ لأَنَّ فيه إثباتَ مَذْهَب من يقول باللَّفظ».

ثم روى بسنده الصحيح عن شعبة قال: «نهاني أيّوب أن أحدِّث: «زَيِّنوا القُرآنَ بأصواتكم» اهـ.

وقال أبو عبد الله القرطبي في مقدمة «تفسيره»

(1) هو في «صحيح البخاري» (5048) من وجه آخر مختصرًا.

(2) القلب في علوم البلاغة: جعل كل من الجزأين في الكلام مكان صاحبه، لغرض المبالغة، وفي قبوله خلاف عندهم. ينظر: «عروس الأفراح» لبهاء الدين السبكي (1/288289)، وجواهر البلاغة (ص214213).

(3) ينظر: «معالم السنن» (1/290)، و«غريب الحديث» (1/356).

(4) «غريب الحديث» (1/356)، وينظر: «معالم السنن» (1/290).

(5) «إعراب القراءات السبع وعللها» (1/44).

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

(24/1): «ومعاذ الله أن يتأوَّل على رسول الله ﷺ أن يقول: إنّ القرآن يُزيَّن بالأصوات أو بغيرها، فمن تأوَّل هذا، فقد واقع أمرًا عظيمًا أن يُخرِج القرآنَ إلى من يُزَيِّنُه، وهو النُّور والضياء، والزَّيْنُ الأعلى لمن ألبسَ بهجتَه، واستنارَ بضيائه» اهـ.

♦ المناقشة والترجيح:

بعد عرض هذه الأقوال وأدلَّتها في المذهبين يتبيَّن رجحان قول أصحاب المذهب الأوّل؛ لثبوت أدلتهم وصراحتها في الدلالة؛ ولأنّ الأصل حملُ الكلام - ولا سيما كلام الشارع - على حقيقته وظاهره ما لم تظهر قرينة صارفة عن ذلك.

○ وأمّا ما استدل به أصحاب المذهب الآخر من الأدلة فهي إمّا أنها صريحة غير صحيحة، أو صحيحة غير صريحة، ودونك البيان:

1- فأما الروايات الواردة في حديث البراء ﷺ فهي شاذة كما سبق بيانه.

2- وأما حديث أبي هريرة ﷺ، فقد رواه يحيى ابن عبد الله بن بكير واختُلف عليه في متنه؛ فأخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في «فضائل القرآن» (ص160)، وأبو عوانة في «مستخرجه» (4334) عن عثمان بن خُرَّزاذ، وأبو بكر الكلاباذي في «معاني الأخبار» (ص60) من طريق عبد الله بن حماد، ثلاثتهم عن يحيى بن بكير، عن يعقوب بن عبد الرحمن الإسكندراني، عن سهيل ابن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «زينوا أصواتكم بالقرآن». ورجاله ثقات.

ولكن خالفهم جماعة آخرون من الثقات فرووه عن يحيى بن بكير، به، باللفظ المشهور: «زيّنوا القرآن بأصواتكم».

أخرجه أبو عوانة في «مستخرجه» (4333) عن عبد الله بن عبد الرحمن أبي محمَّد العنبريّ، ومحمد ابن إسماعيل الصّائغ، وأبي أميّة محمد بن إبراهيم، ومحمد بن إسحاق الصغاني، وابن حبان في «صحيحه» (219) من طريق محمد بن إسماعيل البخاري، وابن شاهين في «الضعفاء» (18) من طريق يحيى بن معين؛ ستتهم قالوا: حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، به.

والحديث علقه الإمام البخاري في «خلق أفعال العباد» (270) بصيغة التمريض عن سُهيل، به.

والظاهر أنّ هذا الاضطراب من يحيى بن بكير نفسه؛ لاختلاف جماعة من الثقات عليه.

وقد خطّأه فيه الحافظ أبو بكر جعفر الفريابي رحمه الله، قال الحافظ ابن حجر في «تغليق التعليق» (377376/5): «قال الفريابي: غلط ابنُ بكير في هذا الحديث، وأدخل حديثًا في حديث. قلت فخفي على ابن ماجه موضع العلة ومشى على ظاهر الإسناد فصحّحه والله الموفق، لكن لم يذكر جعفر دليلَ العلة، وقد ذكر معاوية بن صالح عن يحيى بن معين أنّ أحمد ابن حنبل سأله عمّا استفاد فذكر له هذا الحديث» اهـ. ويحيى بن معين إنّما استفاده عن يحيى بن بكير، كما مرَّ في تخريجه.

وإذا قالوا: «هذا حديث فائدة»، فالغالب أنه خطأ، وإن كان راويه ثقة، كما قال الإمام أحمد رحمه الله: «إذا سمعت أصحاب الحديث يقولون: هذا حديث غريب، أو فائدة، فاعلم أنه خطأ، أو دخل حديثٌ في حديث، أو خطأ من المحدِّث، أو حديث ليس له إسناد، وإن كان قد روى شعبةُ وسفيان»[1].

والحديث أورده العلاّمة الألباني رحمه الله في «السلسلة الضعيفة» (5326) وأعلّه بالنكارة والقلب، وأسهب في تخريجه، وأطال في الرد على الخطابي وبيان خطئه رواية ومعنى.

3- وأما حديث: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»، فهو حديث متنازع في معناه[2]، فلا يحسن إيراده في

(1) ينظر: «الكفاية» (399) للخطيب، و«شرح علل الترمذي» (623/2) لابن رجب.

(2) ذكر الحافظ في «الفتح» (69/9) وما بعدها عن أهل العلم في معناه خمسة أقوال.

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

موضع النزاع، بل هو على الراجح - حجّة عليهم؛ فقد جاء تفسيره في نفس الحديث، حيث قال الإمام البخاري عقبه: «وزاد غيرُه: «يَجْهَرُ بِهِ»، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (71/9): «ظواهر الأخبار ترجّح أنّ المراد تحسينُ الصوت، ويؤيّده قوله: «يَجْهَرُ بِهِ»؛ فإنها إن كانت مرفوعة قامت الحجة، وإن كانت غير مرفوعة فالراوي أعرف بمعنى الخبر من غيره ولا سيما إذا كان فقيهًا».

وتصحيح معنى التَّغَنِّي في الحديث بتحسين الصوت هو ما جزم به العلامة ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» (485/1-486)، وحكاه عن الإمام أحمد أيضًا.

ويؤيده ما ثبت عن التابعي الجليل عبد الله بنُ أبي مُليكة رحمه الله، فيما رواه أبو داود (1471) من طريق عبد الجبار بن الوَرْد، قال: سمعت ابن أبي مليكة، يقول: قال عبيد الله بن أبي يزيد: مرَّ بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى دخل بيته، فدخلنا عليه، فإذا رجل رثُّ البيت، رثُّ الهيئة، فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»، قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد، أرأيتَ إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: «يحسّنه ما استطاع». وصحّح الحافظ إسناده[1].

وتفسير ابن أبي مليكة هذا أشار إليه ابن بطال في «شرحه البخاري» (260/10)، وقال: « وهو قول ابن المبارك والنضر بن شميل».

وأورده أيضًا الحافظ ابن كثير في مقدمة «تفسيره» (62/1) ثم قال عقبه: « فقد فهم من هذا أن السلف، رضي الله عنهم، إنما فهموا من التغني بالقرآن: إنما هو تحسين الصوت به، وتحزينه، كما قاله الأئمة، رحمهم الله».

4. وأمّا قول الخطابي رحمه الله: «وإنما تأوّلنا الحديثَ عَلَى هذا المعنى لأنّه لا يجُوزُ عَلَى القرآن وهو كَلامُ الخالقِ أن يُزيّنَه صَوْتُ مَخْلوقٍ... إلخ».

فقد تعقبه عليه ابن بطال رحمه الله فقال في «شرحه صحيح البخاري» (545/10): «والقول الأوّل هو الذي عليه الفقهاء، وعليه تدل الآثار، وما اعتلّ به الخطّابي من أنّ كلام الله لا يجوز أن يزينه صوت مخلوق، فقد نقضه بقوله: «وليس التزيين في وسع كل أحد، لمل من الناس من يريد التزيين فيقع في التهجين» فقد نفى عنه التزيين وأثبت له التهجين، وهذا خُلْفٌ من القول» اهـ.

وأمّا ما فهمه من نهي أيوب السختياني شعبة عن رواية هذا الحديث «زَيّنوا القُرآنَ بأصواتكم» بحجّة أنّ القول بظاهره فيه إثبات وتأييد لمذهب اللَّفْظيّة، فهو غير مسلّم؛ لأنّ من قال بظاهر الحديث - كأحمد وغيره من السّلف - إنّما فسّروه بتحسين صوت القارئ، وأمّا الكلام فهو كلام الباري سبحانه وتعالى، بخلاف مسألة اللفظ التي اشتد فيها إنكار أئمّة السلف نفيًا وإثباتًا، فقالوا: من قال: «لفظي بالقرآن مخلوق» فهو جهمي، ومن قال: «غير مخلوق» فهو مبتدع؛ وذلك لأنّ اللفظ يُطلق على معنيين أحدهما: الملفوظ به وهو القرآن وهو كلام الله ليس فعلا للعبد ولا مقدورا له، والثاني: التلفظ وهو فعل العبد وكسبه وسعيه، فإذا أطلق لفظ الخلق على المعنى الثاني شمل الأوّل وهو قول الجهميّة، وإذا عكس الأمر بأن قال: «لفظي بالقرآن غير مخلوق» شمل المعنى الثاني وهي بدعة أخرى»[2]، يعني غير بدعة الجهمية.

إذًا هناك فرّق بين المسألتين (اللفظ، والصوت)؛ ولذلك جزم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - كما في «مجموع الفتاوى» (75/12) - بأنه لم ينقل عن الإمام أحمد في الصّوت كما نقل عنه في اللّفظ، فقال: «أمّا صوت العبد فهو مخلوق، وقد صرح أحمد وغيره بأنّ الصوت المسموع صوتُ العبد ولم يقل أحمد قط: «من

(1) ينظر: «فتح الباري» (72/9)، وحسن إسناده الألباني في «صحيح أبي داود - الأم» (1322).

(2) «معارج القبول» للشيخ حافظ الحكمي (292/1).

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

قال إنّ صوتي بالقرآن مخلوق فهو جهمي»، وإنما قال: «من قال لفظي بالقرآن»، والفرق بين لفظ الكلام وصوت المبلِّغ له فرقٌ واضح؛ فكلُّ مَنْ بلَّغ كلام غيره بلفظ ذلك الرجل فإنما بلّغ لفظ ذلك الغير لا لفظ نفسه، وهو إنما بلغه بصوت نفسه لا بصوت ذلك الغير»[1].

ثم يقال: إنَّ الذي فهمه الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ عن أيوب هو مقابل أيضًا بفهم غيره، وذلك أن أبا عبيد القاسم بن سلاّم رواه في «فضائل القرآن» (ص167) ثم قال عقبه: «وإنما كره أيوب فيما نرى أن يتأوّل الناس بهذا الحديث الرخصة من رسول الله ﷺ في هذه الألحان المبتدعة، ولهذا نهاه أن يحدث به».

وأورده الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (63/1) ثم قال معقبًا عليه بكلام نفيس، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قلت: ثم إنّ شعبة روى الحديث متوكّلا على الله، كما رُوي له، ولو تُرك كلُّ حديث بتأوّل مُبْطل لتُرك من السنة شيءٌ كثير، بل قد تطرَّقوا إلى تأويل آيات كثيرة وحملوها على غير محاملها الشرعيّة المرادة، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله» اهـ.

□□□

♦ **والخلاصة:** أنّ الحديث بلفظ: «زيِّنُوا القرآنَ بأصواتكم» صحيح مبنى ومعنى لا غبار عليه، وأنّ المراد بتزيين القرآن تحسين الصوت به، كما جاء مفسَّرًا في بعض طرقه وشواهده في المعنى كحديث: «التغني بالقرآن»، وقول أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي ﷺ: «لحبرته لك تحبيرًا»، وأثر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيرها.

ولا شك أنَّ سماع القرآن الكريم من صاحب الصَّوت الجميل الشَّجيّ، والأداء الحسن لأحكام التَّجويد وقواعده، له الأثر الكبير على القلوب في حصول الخشوع، والاتِّعاظ بمواعظه وعبره، والانتفاع به وتدبُّره، كما هو واقع مشاهد.

وأمَّا الرِّواية باللَّفظ (المقلوب): «زيّنوا أصواتكم بالقرآن» وهو إن لم يثبت من حيث الرواية، إلاّ أنّ له معنى صحيحًا أيضًا[2]؛ وهو ما أشار إليه ابنُ بطال رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال في «شرحه للبخاري» (546/10) ـ بعد تفنيده لكلام الخطابي ـ: «ولا يُنْكَر أن يكون القرآن يُزَيِّن صوتَ من أدمن قراءته، وأثره على حديث الناس، غير أن جلالة موقعه من القلوب، والتذاذ السامعين به لا يكون إلا مع تحسين الصَّوت به».

والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

(1) وينظر: فتح الباري (75/13).

(2) صرّح بذلك الحافظ ابن القيم في «روضة المحبين» (ص377).

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية